العبقرية في اللغة
النظرية العلمية في تفسيرها

مراحل العلمية الإبداعية

كلمة العبقرية مشتقة لغوياً من عبقر: وهو واد به قرية قيل بأنه تسكنها الجن في الجزيرة العربية فيما زعموا، وكان العرب كلما رأوا شيئاً فائقاً غريباً مما يعسر عمله ويشق، أو شيئاً عظيماً في ذاته، نسبوه إلى هذه القرية فقالوا: عبقري.. ثم اتسعوا في هذا الاستعمال فنسبوا كل شيء جيد إلى عبقر، حتى سمى به السيد الكبير عظيم المكانة، فيقال: عبقري القوم أي سيدهم، وقيل أيضاً أن العبقري هو الذي ليس فوقه شيء، كما استعمل لفظ العبقري بمعنى الشديد»[1].

أما الاستعمال المعاصر الشائع لمصطلح العبقرية فهو للدلالة على الابتكار في مجالات العلم أو الأدب أو الفن.

أما أهم الآراء في تفسير العبقرية وماهيتها وأسبابها فيمكننا أن نلخصها فيما يلي:

1 - الآراء الفسيولوجية وأهمها:

أ - رأي لمبرزر (1830-1909م) الباحث الإيطالي في كتابه «صاحب العبقرية» وهو يجعل: «الشخص العبقري فلتة من فلتات «الطبيعة»؛ وذلك لأنه يتصف بنظره بفقدان اتزان تركيب دماغه من الناحية التشريحية، إما بتضخم

(1) الإبداع في الفن والعلم. د. حسن أحمد عيسى، ط 1، سنة 1979. عالم المعرفة، ص: 6.

مفرط في حجم الدماغ أو بضمور ملحوظ»[1]، وقد ربط العبقرية بالجنون.

ب: - وجهة نظر السير فرنسي كالتون (1833-1911م) عالم البيولوجيا البريطاني صاحب كتاب «العبقرية الموروثة» المنشور سنة (1861م) وقد عرف العبقرية بأنها: «قدرة عقلية عليا فطرية فريدة» أو أنها: «ذكاء خارق يمتاز به بعض الأشخاص دون غيرهم»[2].

جـ: - رأي كريشمر عالم الأمراض العقلية الألماني في كتابه «علم نفس ذوي العبقرية» (1931م) الذي يصف العبقرية بأنها:

«انحراف باثولوجي عصبي وراثي موجود لدى أفراد بعض الأسر المصابة بالشذوذ العقلي»[3].

د: - نظرية بافلوف في العبقرية التي لخصها د. نوري جعفر والتي تنص على أن: «الابتكار أو الأصالة في «الإبداع» في حقل العلم أو في المجال الفني، من حيث هو عملية ذهنية منظوراً إليها من زاوية تركيز الانتباه لفترة طويلة من الزمن في موضوع معين، بالاستناد إلى الإلمام الواسع العميق به: هو نشاط عصبي تقوم به خلايا القشرة المخية التي بلغت إثارتها حدها الأقصى»[4].

2 - الآراء النفسية:

أ: - **وجهة نظر مدرسة التحليل النفسي** بفرعيها فرع فرويد (1856-1939م)، وفرع كارل يونج 1875-1961م.

---

(1) الفكر (طبيعته وتطوره) د. نوري جعفر. ط2، سنة (1977). مكبة التحرير، بغداد، ص: 151 - 152.

(2) نفس المصدر ص: 152.

(3) المصدر نفسه ص: 152 - 154.

(4) المصدر نفسه ص: 171 - 172.

أما فرويد فقد نسب العبقرية إلى: «رغبات مكبوتة في اللاشعور، جنسية المحتوى في الأصل، تتخذ ميدان الرموز واجهة أو ستاراً لتسربها إلى الحياة الشعورية تفادياً لاصطدامها بتقاليد المجتمع»[1]، ورأى بأن: «الطاقة الحيوية الهائلة الكمية الموجودة فطرياً لدى بعض الأشخاص «العباقرة» من الممكن أن تتجه في آخر المطاف أثناء مجرى الحياة إلى حقل النفس أو مجال العلم»[2]، وأن: «التسامي أو الإعلاء هو العملية التي تؤدي إلى الإبداع»[3]، وقد حذا حذوه تلاميذه على اختلاف يسير بينهم في الرأي، ومن أشهرهم أرنست جونز، هانزساكس، أوتورانك، شارل بوردان.

أما كارل يونج فقد فسر «الأصالة» في كتابه «الإنسان الحديث في بحثه عن الروح» بأنها أثر: «الخبرة اللاشعورية الأصيلة المستمدة عند كبار الفنانين من مكنونات اللاشعور الجمعي»[4]، ويقصد بهذا اللاشعور الجمعي: «الأوهام والأساطير والذكريات الفطرية لدى كل شخص، منقولة إليه بالوراثة «الحيوية» عبر الأجيال المتعاقبة منذ أقدم العصور»[5].

ب: - آراء نفسية آخرى: التركيب «الجشتالتي» للتفكير المبدع:

يرى فرتهايمر أن: «الفكرة إنما هي رواسب الإدراك «الذهني» في العقل، وأن الأفكار الجديدة إنما هي ارتباطات لأفكار قديمة»[6]، وأن صاحبها يواجه: «موقفاً إشكالياً تكون فيها المشكلة ذات ترتيب غير تام مما يسبب توتراً للشخص المفكر يسعى معه إلى الإكمال»[7].

---

(1) الفكر: طبيعته ص: 157 - 158.
(2) نفس المصدر.
(3) الإبداع في الفن والعلم ص: 73.
(4) الفكر ص: 161.
(5) الإبداع، ص: 80.
(6) مجلة آفاق عربية، عدد 5 سنة (1978)، خصائص الفكر المبدع، ضياء الدين أبو الحَب.
(7) نفس المصدر.

تفسير العبقرية بتعويض النقص عند أدلر:

يرى أدلر أن: «النبوغ إنما ينتج عن شعور بالنقص، وخاصة النقص العضوي، مما يدفع العبقري إلى أن يواجه بشجاعة هذا الشعور بالنقص عن طريق عملية التعويض الذي يدفع صاحبه إلى التفوق من ناحية أخرى»[1].

تفسيرها بالحدس:

يرى برجسون أن العبقري يبدع في موضوعه لامتلاكه: «الحدس الذي يزيل الحواجز لمكانية والزمانية بينه وبين هذا الموضوع، ويجعله ينفذ إليه بنوع من التعاطف»[2]، وأن العبقري هو من: «الطراز الذي يقدر على ممارسة الشعور بالاتحاد مع العالم بكل ما فيه من كائنات»[3].

النظرية الإدراكية الدينامية عند سكاكتل:

يرى سكاكتل أن: «الإبداع ناتج من تفتح الشخص على العالم الذي يحيط به والتركيز على الموضوع دون الذات»[4]، ورأيه قريب من رأي برجسون.

آراء بعض علماء الرياضيات:

يرى بونكاريه عالم الرياضيات الفرنسي (1854-1922م) أن الباعث على العبقرية هو: «نشاط اللاشعور أو النفس المتسامية» الذي يتميز به الشخص العبقري والذي يجعله قادراً على إحداث: «ترابط بين الأفكار المبعثرة، والابتعاد عن الارتباطات التافهة والعقيمة لينفسح المجال لحدوث

(1) الإبداع، ص: 79.
(2) الإبداع، ص: 62.
(3) الإبداع، ص: 62.
(4) مقال أبو الحب في الآفاق.

الارتباطات الجميلة المفيدة الراقية الضئيلة المقدار». وذهب مذهبه عالم الرياضيات الأمريكي جاك هادامارد.

مراحل العملية الفكرية:

حدد لنا هلمهولتز منذ أواخر القرن الماضي مراحل عدة لإظهار شيء حديث أولاها: ويعتبرها مرحلة مبدئية للبحث تستمر حتى يصبح من غير الممكن التقدم بعدها.. ثم تعقبها مرحلة راحة يستعيد فيها الشخص نشاطه، وفجأة يخطر للشخص بعدها الحل المنشود لمشكلته بطريقة غير متوقعة، كما لو كان إلهاماً. وقد أتى بعده في سنة (1926م) والاس فجمع هذه المراحل وصنفها وأطلق عليها الأسماء التالية التي أصبحت تعرف بها حتى الآن:

المرحلة الأولى: الإعداد.

المرحلة الثانية: الاحتضان.

المرحلة الثالثة: الإشراق.

المرحلة الرابعة: التحقيق.

وقد أكدت «كاترين باتريك»[1] صواب هذه المراحل بإجراء تجارب علمية معملية، فخرجت عن الإطار التأملي الفردي واكتسبت طابعها العلمي.. وبشيء من البيان فإن هذه المراحل بالنسبة للعبقري تقتضي ما يلي:

المرحلة الأولى وهي مرحلة الإعداد: وفيها يتاح لصاحب الفكرة أن يقتني المعلومات والمهارات والخبرة التي تمكن من دراسة الموضوع أو تحديد المشكلة.

المرحلة الثانية التي تلي الإعداد وهي مرحلة الاحتضان: وهي مرحلة تتميز بالجهد الشديد الذي يبذله في سبيل حل المشكلة أو إنجاز الموضوع الذي يفكر فيه.

(1) الإبداع، ص: 37 - 22.

المرحلة الثالثة: التي تلي الاحتضان هي مرحلة الإشراق: وتوصف بأنها مرحلة العمل المحكم الخبير للعقل في العملية الفكرية، وهي (مرحلة يثب فيها الحل إلى العقل وتظهر الصورة بينة المعالم للعمل الفكري، وتظهر الفكرة بتلقائية تامة مع شعور بالثقة والتأكد والاطمئنان، وجذور العملية تبدو في وعي الفرد بأن شيئاً جديداً قد أمكنه الوصول إليه مع ما يصحب ذلك من متعة وحيوية وفرح.

المرحلة الرابعة: مرحلة التحقيق: وتتضمن الاختبار التجريبي للفكرة في العلم، وتفصيل الفكرة العامة في الفن[1].

ومنهم من جعل الحاجة إلى حل مشكلة ما مرحلة من مراحل العملية الإبداعية، وقسم مرحلة الاحتضان إلى مرحلتين منفصلتين «التفكير في المشكلة وتخيل الحلول» مثل هاريس (1959م)، مع أن الحاجة إلى حل مشكلة ما كما يبدو ليس مرحلة من مراحل الإبداع، إنما هو أساس العلمية الإبداعية وسببها ومنطلقها.

أما موريس شتاين فقد دمج المراحل الثلاثة السابقة في مرحلة واحدة سماها «تكوين فرض»: وتبدأ بالإعداد، وتنتهي بتكوين فكرة منتقاة من بين عدد كبير من الأفكار تتراءى للفرد، وسمى المرحلة الرابعة وهي التحقيق بـ- «تحقيق الفرض»، لتحديد صلاحية هذه الفكرة من عدمها، وزاد مرحلة أخرى إلى المراحل السابقة سماها بـ- «الاتصال بالآخرين» لتقديم العمل للآخرين حتى يستجيبوا له، ولا يخفى أن تقديم العمل خارج من العملية لأن هذا العمل في حالة تقديمه للآخرين وبعد التحقيق والبرهان على صلاحيته يكون قد تم وكمل وأخذ صورته النهائية في نظر من عمله.

ويتضمن تعريف بافلوف للعملية نفس المراحل التي حددها والاس؛ إذ أن الإبداع في نظره يستلزم:

---

(1) الإبداع، ص: 47. بتصرف بسيط.

أولاً: توافر مرحلة تاريخية معينة سابقة، أو إمكانات مادية وفكرية معينة، ودراسة تستغرق سنين طويلة أي «الإعداد».

ثانياً: تركيز الانتباه وإقصاء المؤثرات الفكرية والحياتية الأخرى لكي تنتشر الإثارة[1] فيها أي «الاحتضان».

ثالثاً: ميلاد الفكرة الجديدة أو المبتكرة «الإشراق»..

ولا ريب أن هذه الفكرة الجديدة أو المبتكرة في العلم لا بد أن تتحقق تجريبياً لتتجرد من خصوصية صاحبها، كما أن الفكرة العامة في الفن والأدب لابد أن تصل وتتجسد في أشكال أدبية وفنية رائعة موسومة بسمة عبقرية صاحبها، تلك العبقرية الناشئة من تفاعل مزاياه النادرة مع الإمكانات المادية والعلمية المتيسرة.

لذلك فإن هذه المراحل الأربعة في العملية قد لاقت قبولاً حسناً ولم يأخذ عليها أحد من الباحثين على أنها غير موجودة، إنما هناك من يقول مثل «فيناك» بأن هذه المراحل ليست منفصلة عن بعضها، إنما هي: «تتداخل وتمتزج، وقد يتزامن وجودها لدى المبدع في موقف «إبداعي» معين؛ حيث يجد نفسه يمارس الإعداد والإشراق والتحقيق والاحتضان»[2]، وإن: «من الضروري النظر إلى التفكير المبدع بوصفه فاعليات ديناميكية متفاعلة أكثر منه مراحل متميزة»[3]، ولذلك يقول د. فاخر عاقل: «لقد مضى ما يزيد على خمس وأربعين سنة منذ أن قدم غراهام والاس (1926م) وصفه للتحليل «المبدع»، ومع ذلك فإن هذا الوصف ما زال مقبولاً عند الكثير من علماء النفس»[4].

---

(1) لبافلوف نظرية خاصة في (الإثارة والكف)، انظر إليها في كتاب (طبيعة الإنسان في ضوء فسلجة بافلوف)/ د. نوري جعفر، ط2، سنة (1978)، بغداد، الفصل الثالث.

(2) الإبداع، ص: 54.

(3) نفس المصدر السابق.

(4) نفس المرجع، ص: 73.

لا يهمنا في بحثنا للعبقرية ودراستنا للشبهة الغربية المثارة عن القرآن الكريم بالزعم أنه أثر من آثار عبقرية محمد ﷺ تحديد السبب الدافع إلى العبقرية، هل هو سبب مادي عضوي أم هو سبب نفسي؟ هل هو «الحدس» عند برجسون، أو التسامي والإعلاء في رأي مدرسة التحليل النفسي؟ أو أنه السعي إلى الإكمال عند الجشتالت؟ أو انتشار الإثارة في القشرة المخية عند بافلوف؟ وإن كنا نستبعد «عملياً» أيضاً الآراء التي تعتبر الجنون سبباً للعبقرية أو أثراً حتمياً لها، ذلك أن العبقرية بما تقتضيه من جهد فكري ونفسي وعلمي قد تؤدي إلى ضعف أو نقص في بعض مظاهر وأنماط الحياة المنبعثة من الشعور والأهواء والانفعال، أو في بعض مجالات الفكر خارج إطار موضوع العبقرية ومشكلتها، وقد يحدث العكس أيضاً إذ يدفع النقص العضوي أو النفسي إلى تركيز الانتباه والاهتمام في موضوع خاص ومن ثم التحديث فيه، إلا أن العبقرية والجنون ليسا متلازمين تلازم السبب والنتيجة كما أسلفنا.

المهم في دراستنا هذه هو إجماع الباحثين عدا «كارل يونج» على أن أجزاء الفكر العبقري ومواده الأولية مأخوذة من الواقع، مستمدة من الوسط، ولا أهمية لما قاله «يونج» لأن الطفل يولد دون أن يكون في فكره علم موروث، ومع أن بعض الأطفال يتميزون بمواهب و«قدرات عقلية عليا فريدة» على حد كلام «كالتون» أو: «مزايا عضوية مخية نادرة مازال البحث مستمراً على ما نعلم لكشف اللثام عنها»[1] كما يقول د. نوري فإن هذا الموروث لا يؤتي ثماره إلا في محيط إنساني مثير لينميها ويمدها بالفكر، فتبلور هذا الموروث وتشكل آثاره لا بد أن يتأثر بالفكر والمعرفة السائدة.

وتهمنا كذلك في دراستنا إجماعهم على وجود مراحل معينة للعملية لازمة لها مهما كان اختلافهم في تصور تتابعها وتواليها، وأياً كان ظنهم بانفصالها، أو بتداخلها وامتزاجها.

(1) الفكر، ص: 182.

وفيما يتعلق بالمسألة الإجماعية الأولى وعلاقتها بدراستنا نحاول أن نلقي نوراً على القرآن الكريم - وهو نور - وملابسات تنزيله لنرى ما إذا كان من الممكن أن يزعم أحدهم أنه عمل أدبي وعلمي بديع من عبقرية محمد ﷺ، بأن يكون قد استمده من محيطه.. ولكن يعز علينا التاريخ أن نظن وجود صلة تلقي بينه وبين مصادر العلم وموارد البيان في محيطه أو خارجه، أو نعثر على أوهى خيط ارتباطي وتعلمي بينه وبينها..

ما ذكره القرآن الكريم من علم وإخبار وقصص وشريعة سابقة للزمن لنا أن نتساءل من أين ترى جمعها محمد ﷺ؟ وهي على نوعين:

أ: - أمور مصدقة لما جاءت به الكتب المنزلة.

ب: - ما لم يذكر في هذه الكتب، أو أنها ذكرت في القرآن الكريم بشكل يختلف في تفصيله مع ما ذكر في هذه الكتب، فأما ما ذكره القرآن الكريم مما لم يذكر في كتاب سابق، ثم جاءت معطيات العلم المعاصر لتؤكد صدق القرآن الكريم فإنه يشكل برهاناً على صدق هذا الكتاب الكريم واستحالة صدوره من فكر بشر.. لأن علم الإنسان المحدود لا يحيط بحوادث الماضي وعلم الحاضر ومستجدات المستقبل البعيد، وبدون أية إمكانية علمية مؤهلة لتلك الإحاطة... وأما ما ذكره القرآن الكريم من الأمور مما اختلف فيه مع روايات الكتب المنزلة في التفصيل العلمي... فإن إثبات الوثائق التاريخية أو التجارب العلمية صدق الخبر القرآني[1] وخطأ ما ذكر في الكتب كالتوارة مثلاً بشأنها، فلا يمكن تفسيره أيضاً إلا بالوحي؛ إذ ليس بوسع الإنسان مهما كانت عبقريته وكمية مادته العلمية التي يحيط بها أن يتجاوز المعطيات العصرية الشائعة حول مسائل تاريخية معينة مثلاً، وأن

(1) وهذا ما حدث فعلاً انظر: قصة الطوفان، وخروج موسى عليه السلام من مصر، في كتاب بوكاي فصل (الروايات القرآنية وروايات التوراة) ص: 231.

يتوصل إلى الحق الثابت بشأنها بالتأمل. . . يقول موريس بوكاي: «إذا لم تكن العوامل الإنسانية تستطيع أن تشرح التغيرات التي طرأت على الروايات لتتجه بها إلى التوافق مع المعارف الحديثة فيجب أن نقبل شرحاً آخر، وهو أن هناك تنزيلاً من الله قد جاء بعد التنزيل الذي تحتوي التوراة عليه»[1].

أما ما ذكره القرآن الكريم مما تطابق بتفصيله مع الكتب مما يمكن أن يتطرق إليه زعم بأنه مأخوذ من أهل الكتاب فذلك ما سنحققه ليتأكد القارىء من أن محمداً ﷺ لم يأخذ شيئاً من القرآن الكريم من أي مصدر خارجي، وسيمر تحقيقنا وهو يتضمن سؤالين كبيرين:

أولاً: هل أخذ محمد ﷺ عن محيطه؟

ثانياً: هل أخذ عن أهل الكتاب؟

أولاً: هل أخذ محمد ﷺ عن محيطه؟

من الذين زعموا ذلك مونتغمري وات في كتابه «محمد ﷺ في مكة»، وأنه كوّن مركباً متناسقاً مما أخذه من الفئة المستنيرة من أهل مكة، وقد أقام نظريته على الظن، واستعمل كلمات مثل ربما ويمكن وسنفترض، ومرة ينكر رؤيته لجبريل وهو مذكور في القرآن الكريم والحديث، ولكنه يزعم مرة أن الملك هو الذي وضع الوحي في لاشعوره، ولماذا لم ينزله على قلبه وهو الحق؟ ومرة أخرى يزعم أن القصص ربما وصلته بالتلباثي، ومن أرسلها له بمثل هذا الصدق والتفصيل وهي غيب؟. .أو عن طريق الوحي وذلك حق. .لكنه زعم أن وحيه فكري فنقض نفسه!. . ورغم أن وات قد أثبت أن محمداً ﷺ :«لم يقم بتحليل تجريدي للوضع كالذي نقوم به»[2] وأنه: لا

(1) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي. دار المعارف، بيروت ص248.

(2) محمد ﷺ في مكة، مونتغمري وات، ص: 136.

يمكن للمحاولات التجريبية ولا للفكر النافذ أن يفسر كما يجب رسالة القرآن» نفس الصفحة.. فإنه لم يتعلق حتى بشيء واه لإثبات التأثيرات اليهودية والمسيحية في القرآن الكريم، بل زعم أن القرآن الكريم انبثاق خلّاق من الوضع المكي لأنه ذكر الجمل، ولم يحرم الربا في مكة،ولأنه ظهر باللغة العربية، ولأنه أكد على أسماء القوة لله سبحانه لنيل رضا العرب.. إن القرآن الكريم لم يذكر الجمل وحده على تميز خلقه وصفاته، بل ذكر الفيل كذلك وهو غير موجود في الجزيرة، وذكر سورة باسم النحل وأخرى باسم النمل، وذكر الذباب والبعوض والخيل والبغال والهدهد..و.. ليلفت نظر الإنسان المعاصر للرسالة إلى خلقها أو يبين سماتها أو أعمالاً قامت بها..إنه الواقع الكوني والحياتي لإنسان ذلك العصر: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8] من الخلق الذي يتواجد في أدغال أفريقيا أو في عالم الأسكيمو القطبي مما يقل رؤيته للناس في مهد الحضارات.

أما أسماء القوة فهو لم يذكرها وحدها، ومراجعة للقرآن الكريم وإحصاءً لأسمائه الحسنى يجد القارىء بها أسماء كثيرة تنبىء عن رحمته.. أما عدم تحريم الربا في مكة فهو لأن القرآن الكريم أنزل وقد علم الله سبحانه أن الذين تعودوا على بعض الذنوب لا يمكن أن يكفوا وينتهوا عنها بعجلة ووقت واحد بل إن الحكمة تقتضي التدرج، وهكذا كان النهي عن الخمر كذلك والزنا..لا أنه استرضى بعضاً على حساب الآخر.. خاصة وأن القرآن الكريم في مكة المكرمة نهى عن أكل التراث، وأكل مال اليتيم، ومنع الماعون، والتطفيف في المكيال والميزان وغير ذلك مما ألفه الناس أو أغنياؤهم.. وهو نفسه أكد على أنه لا بد من قيام أمة جديدة للعمل بما يأمر به القرآن الكريم وينهى عنه[1].. كما أكد وجود خلاف بين ما دعا إليه وطرق التفكير القديمة ولولا

(1) محمد ﷺ في مكة، مونتغمري وات، ص: 138.

ذلك لما كانت معارضة شديدة له[1]. أما اللسان العربي فهو لسان القوم، وكل رسول أرسل بلسان قومه ليبين لهم.

إن وجود تشابه بين بعض الدين في الإسلام وبين ما عليه العرب من بقايا دين إبراهيم وإسماعيل.. لا يقتضي أخذ الأول من الثاني فقد صدّق عيسى عليه السلام ما جاء به موسى عليه السلام، وصدّق رسولنا ﷺ ما بين يديه من الكتب المنزلة..

إن تفسير أخذ القرآن الكريم من المحيط هو من التفسير الدوركايمي الذي يجعل الإنسان صنع محيطه ولو كان نبياً، وذلك تفسير أحادي وضعي عفا عليه الزمن.. وإن هذا الظن لا يوافق سمة الصدق لدى الرسول ﷺ والتي أقر درمنجهم بأنه كان: «ذا قلب خال من الكذب والغش والغرور، لم يترك العروة الوثقى بعد أن استمسك بها».. وقال كلاماً كثيراً عنه في كتابه، بل إن وات نفسه دعانا أن نتمسك: «بصلابة بصدقه»[2] بل إن مكسيم رودنسون ذا التفسير الماركسي والفرويدي نفى عنه النفاق رغم تفسيره الاستدعائي اللاشعوري للوحي.. وكما يقول رشيد رضا[3] فإنه لا يضيرنا أن يكون محمد ﷺ قد تعلم شيئاً من معلومات عصره، وكما يقول محمد عزة دروزة: إذا حولناه بلسان العصر فإن فرقاً كبيراً بين القرآن الكريم وخطابه وبين الخطاب العربي في فضاء عصره[4].. وقد أكد أرنولد أن الإسلام كان: «انقلاباً كاملاً لمثل الحياة التي كانت من قبل».. وذكر منها أخلاق الإسلام وتميزها وخصوصيتها[5].. كما بيّن المؤرخ الهندي «خدابخش» أن: «المثل العليا

(1) محمد ﷺ في مكة، مونتغمري وات، ص: 138.
(2) المصدر نفسه، ص: 94.
(3) الوحي المحمدي، رشيد رضا، ص 89.
(4) حياة الرسول، ج 1، ص: 47.
(5) دراسة عن مناهج المستشرقين لأرنولد، د. عماد الدين خليل، ص: 135.

الوثنية تتعارض تماماً مع مثل الإسلام العليا»[1] ومن ذلك كما يذكر الإيمان بإله واحد دون تأثر بالعقائد المنتشرة، وأن الإله الواحد الذي كانوا يؤمنون به كان لا يؤمن به أحد في ذلك العالم[2].

وذكر تيرنر كذلك تميز الأخلاق في الإسلام، وأن رابطة الإيمان قد حلّت محل الصلات الدموية. . وأخذ عن توسيهيكو أزيسو أن قبول الإسلام كان يقتضي: «عدم احترام التقاليد القديمة وعدم الالتزام بأبطال وعادات الماضي». . وكان ذلك سبب عسر تكيف البدو مع الإسلام لجمودهم الفكري وظهور حركات الردة في البادية[3].

لقد كان محيط محمد ﷺ جاهلاً بما ذكره القرآن الكريم، إيماناً وشريعة وأنباء غيبية وقصصاً حقاً وأخلاقاً محمودة، ببرهان ما وصفهم به القرآن الكريم بقوله فيهم: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164] وقوله في التعليق على قصتي يوسف ونوح المذكورتين في الكتاب الكريم وعدم اطلاع محمد ﷺ أو قومه عليهما من قبل: هود: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49]، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ﴾ [آل عمران: 44]. وإذا شئت المزيد: فإن أهل الكتاب ضنوا بما لديهم من علم إذ حرموا منها غيرهم، مما أدى إلى عدم تسرب الفكر والعلم الديني من اليهودية والمسيحية وبقاء اللغة العربية خلواً من نصوصها ومفرداتها. ويؤكد ذلك خلو الشعر الجاهلي منها مع أنه يبين أوسع بيان حياة العرب الفكرية قبل الإسلام، كما يؤيده لجوء المكيين إلى اليهود في المدينة للتثبت من صدق الرسول ﷺ في نبوته؛ إذ لو كان عندهم علم من الكتاب لتيقنوا من

(1) الحضارة الإسلامية، خدابخش، ص 18.
(2) المصدر نفسه ص: 34.
(3) علم الاجتماع والإسلام، ص: 59.

صدقه ﷺ في دعوى النبوة بما يلاحظونه من صلة القربى والتآلف والتعاطف بين القرآن الكريم وبين ما ذكرته كتب أهل الكتاب رغم ما نالها من التحريف الذي غيّر معالمها وطمس بعض حقها، ثم ببشارة تلك الكتب ببعثة النبي الخاتم ﷺ التي كتمها المستحفظون عليها.. مع كون الأمة التي بعث فيها محمد ﷺ أمة أمية، والأمية قد فسرها ﷺ بقوله: «**إنا أمة أمية لا تكتب ولا تحسب**»[1]، وهذا يقتضي أنها لم تكن تدأب على الكتابة وتهرع إليها في كل شؤونها، أو تنقل الحضارات العالمية إلى لغتها، أو تؤرخ تحريرياً لأخبارها، أو تثبت وتقيد ما في فكرها وشعورها من علم وشعور ومواقف، فهي لم تكن أمية بمعنى عدم العلم بالماضي والحاضر، وبتاريخ أسلافها وحضارتهم، ولغتها، وآدابها، وعقائدها، وعاداتها، وفنونها، وبرهان ذلك ما ذكره القرآن الكريم لهم أولاً من كلمات: «قرطاس وقراطيس وكتاب ومداد وأقلام وصحف و﴿يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [يونس: 94] واكتتب وتملى وقرأه وتتلى وتخطه وكتب والحكمة والعلم وتعلمون وعلم وعالمون والعلماء[2].. لكن علمها بكل ذلك إذ لم يتوافر على جمعه وتحقيقه وكتابته وتقييده كتّاب مختصون متفرغون - للجوئهم إلى الحفظ - فقد الكثير من الأمور العلمية ترابطه المنطقي لديهم، وضاع تسلسله التاريخي في حافظتهم، ونسيت دقائقها المفصلة، وعلاوة على ذلك انفصلت تلك الأمور عن عبرها وعظاتها وحكمتها الإيمانية ومعقباتها الحتمية، فلم يتأثروا بها، ولم تنشىء في نفوسهم آثاراً، ولم تغير لهم حالاً؛ فمثلاً كانوا يعلمون المعجزات وطلبوها من الرسول ﷺ، ويعرفون أسماء بعض الأنبياء عليهم السلام ونتفاً من أخبارهم، ومواطن الأقوام التي أهلكت كعاد وثمود.. وقد يكون محمد ﷺ

(1) رواه البخاري: التجريد الصريح للزبيدي، ج1، ص: 206.
(2) تاريخ العرب لِجواد علي، ص: 70.

قد علم شيئاً من ذلك التراث الشعبي السائد، ولكن ذلك العلم السطحي المتناثر المظنون الإجمالي لم يكن كافياً حتماً لإخراج القرآن بذلك التفصيل العلمي المعجز.

إذاً لم يكن محيط محمد ﷺ مالكاً لرصيد ديني يمكن تركيب القرآن الكريم من رواسبه وبقاياه، أو يضارع هذا الكتاب ويغني بعض غنائه في التأثير في القلب والعقل، ولو كان ذلك لتحدث به القرآن الكريم ولهجت به المعارضة وجمعته في كتاب لتعارض به هذا الكتاب الذي يتحداها أن تأتي بسورة أو آية من مثله، ولم تكن لتلجأ إلى أساطير ملوك فارس مثل «رستم وإسفنديار» لتغطية عجزها في المجال الإعلامي المناهض؛ إذ كان يقرؤها على الناس النضر بن الحارث لينافس بها قصص القرآن الكريم ويغالب بها تأثيرها، . . . إذاً فقد كانت الأمة التي خوطبت بالقرآن الكريم غافلة أو مقطوعة الصلة بمصادر العلم الكتابية، ولذلك منّ الله عليها أن أنزل عليها ذلك الكتاب المفصل المبين الذي يغنيها عن التطلع إلى ما في أيدي أهل الكتاب من العلم ويكفيها في أمور دينها وشؤون حياتها، قال الله سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155].

ثانياً: هل أخذ عن أهل الكتاب؟

من الذين زعموا ذلك كارل بروكلمان[1] وأنه كيف ذلك لحاجات شعبه الدينية، وجرونيباوم الذي زعم أن القرآن الكريم قد أخذ من الوعظ المسيحي والأساطير اليهودية[2]، ومونتغمري وات الذي زعم أن الرسول ﷺ خرّج أفكاره المسيحية في صورة معربة. .

(1) العرب والإمبراطورية العربية، كارل بروكلمان، ص: 81.
(2) حضارة الإسلام، جرونيباوم، ص: 115.

1 - لم تكن بين يدي محمد ﷺ توراة أو إنجيل باللغة العربية ليأخذ عنهما كما يبين «لوبلو» في كتابه، ويؤكد الدكتور «جراف» أن الكتاب الذي يقدسه أهل الكتاب لم يظهر باللغة العربية إلا في القرن التاسع والعاشر، ويقول الأب «شدياق» الذي بحث عن المصادر الإنجيلية التي استعملها الغزالي في كتابة رده الموسوم بـ «الرد على من ادعى ألوهية المسيح بصريح الإنجيل»: أن أول نص مسيحي ترجم إلى العربية كان في سنة 1060م بيد رجل يسمى ابن العسّال، وهو محفوظ بمكتبة «القديس بطرسبرج».. ويرى البعض أن الإنجيل الذي نزل بلسان عيسى عليه السلام لم يبق له أثر.. وكما أيقن أتيين دينيه فإن التوليفات الأربع مشكوك في صوابها وتوثيقها وأدائها للأصل الإنجيلي وأنها قد تعرضت لتحريفات: «أخلاقية أو تاريخية أو علمية أو لغوية أو نفسية أو دينية»[1].. وقد فند مونتغمري وات أن يكون الرسول ﷺ قد قرأ الإنجيل أو أي كتاب آخر.. كما ذكر بروكلمان أن معلومات النصارى في مكة المكرمة عن التوراة والإنجيل كانت: «هزيلة إلى حد بعيد»[2]، ويذكر مكسيم رودينسون أن النصارى كانوا في مكة لا يعرفون إلا القليل عن دينهم وكانوا تجاراً فقراء في معظمهم أو يمتهنون مهناً وضيعة لا تجمعهم كنيسة أو قسيس، كل فرقة تدعي أنها على الحق، وأن من عداهم هراطقة ومبتدعة..ليس لهم علم موثق بعلم الكلام أو اللاهوت النصراني..

2 - أما التوراة فنجد أن ما ذكر في القرآن الكريم يختلف في كثير منه عما ذكر في التوراة، كالتصور الحسي للعهد القديم عن الله سبحانه، وتفصيل الخلق، وحياة الأنبياء عليهم السلام، وخلوه من ذكر اليوم الآخر، والكهنوتية المعقدة المرتبطة بالعنصرية أو الدم، ورموزه المرتبطة بالألوان، وماهية

(1) محمد رسول الله ﷺ، أيتين، ص: 13.

(2) العرب والإمبراطورية العربية، كارل بروكلمان، ص: 37.

الألواح التي تلقاها موسى عليه السلام، والنظرة اليهودية إلى الأمم الأخرى، والانغلاق الديني اليهودي، وقضية الزواج في العهد القديم بين العرف والدين، وسياسة المال والاقتصاد فيه، وحق النساء فيه.. وأمور أخرى كثيرة مختلفة عن القرآن الكريم، بل حتى صورة موسى عليه السلام.. مع نقض القرآن الكريم لفكرة التثليث وألوهية المسيح وصلبه والفداء والخطيئة الموروثة.. كما أن (الآية 63 من سورة الرعد) تبيّن فرح بعض أهل الكتاب بالوحي، والآيتان (46 - 47) تبين وجود جدال ديني في مكة مع إيمان بعض أهل الكتاب..، وكما يذكر محمد عزة دروزة لم تذكر السيرة وجود كتابيّين في مكة باقين على دينهم.. وما ذكره الفادي في كتابه«هل القرآن معصوم؟». من وجود تشابه بين القرآن الكريم وبعض ما ذكر في التوراة والإنجيل هو من تصديق القرآن لهما، وما اختلف فيه هو لكونه مهيمناً عليهما.

3 - ويرى جواد علي أن سبب هذا التفسير هو أن معظم المستشرقين النصارى كانوا من طبقة رجال الدين أو المتخرجين من كليات اللاهوت.. أما اليهود فلتأثير الصهيونية فيهم خاصة بعد تأسيس إسرائيل[1]. كما ينقض التأثير الكتابي كون ثلاثين سورة من قصار المفصل وأواسطه بعد سورة القلم والمزمل والمدثر لا يذكر فيها شيء من معطيات الأسفار[2]. أما صحف إبراهيم عليه السلام فلو أخذ القرآن الكريم منها شيئاً لم يكن ليذكرها كما يقول نولدكه..

4 - ويرى محمد رشيد رضا أن النبوة في التفسير الكتابي كانت صناعة: «تعلم موادها في المدارس، ويستعان على الإقناع بها بالتخييلات الشعرية والإلهامات الكلامية والمؤثرات الغنائية والموسيقية والمعلومات المكتسبة.. وأن كثيراً منهم كانوا متنسكين أو طوافين على الناس.. أشهر

(1) تاريخ العرب، د. جواد علي، ص: 8 - 9.
(2) الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ص: 95.

نبوتهم من الأحلام والرؤى المنامية والتخيلات المبهمة» فأين منها نبوة الرسول محمد ﷺ؟[1].

ثم إن الفرد الوحيد الذي كان يعرف بعض المعلومات الكتابية الوثيقة وذكر أنه كان يكتب الكتاب بالعربي في مكة كان ورقة بن نوفل.. وقد يتبادر إلى فكر البعض أنه هو الذي علم محمد ﷺ القرآن الكريم، ولكن ورقة توفي سراعاً كما ذكر في البخاري «حديث الوحي»، كما أن القرآن الكريم لم يظهر مرة واحدة إنما أكمل بعد ثلاث وعشرين سنة لأحداث حياتية، وحالات إنسانية، مجيباً على تساؤلات، ومعلقاً على مواقف نبوية أو صحابية أوكتابية أو شركية لم تحدث إلا بعد وفاة ورقة بسنين.. وكان اللقاء المذكور له ﷺ بورقة بعد نزول الوحي عليه وبمشورة خديجة رضي الله عنها للتثبت لا التعلم، وخلال تلك الجلسة القصيرة أو الوقفة لا ندري! لم يذكر لنا التاريخ أن ورقة علم محمد ﷺ شيئاً سوى تثبيته له، وتلميحه لهجرته المستقبلية بما عنده من علم الكتاب، ووعده بنصرته إن أبقاه الله حياً حين يخرجه قومه من بلدته.. ولو أن أهل مكة المكرمة عرفوا وجود اتصال ما بين النبي ﷺ وورقة لكشفوه على الملأ واتهموه في صدقه ﷺ، ولانصرف عنه أتباعه تبعاً لذلك، ولكن ذلك لم يحدث مما يبرهن على عدم وجود أية شبهة في انتفاء الرابطة العلمية بينهما..

3 - أما احتكاكه بالبيئة السورية أثناء سفره وإمكان تعلمه الدين الحق من المصادر الكتابية هناك، فينفيه المستشرقون أنفسهم، فيقول هورات مثلاً: «مهماكان إغراء الفكرة التي تقول بأن تفكير المصلح الشاب محمد ﷺ قد تأثر بقوة عندما شاهد تطبيق الديانة المسيحية بسوريا، فإنه يتحتم استبعادها، نظراً لضعف الوثائق والأسس التاريخية الصحيحة»[2]. ويقول تايلور: «إن ما قابله

(1) الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ص: 49.

(2) مدخل إلى القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، ص: 138.

محمد ﷺ وأتباعه في كل اتجاه لم يكن إلا خرافات منفرة، ووثنية منحطة ومخجلة، ومذاهب كنسية مغرورة، وطقوساً دينية منحلة وصبيانية»[1].

4 - أما الزعم بأن محمداً ﷺ قد أخذ عن أهل الكتاب الموجودين في المدينة بعد هجرته إليها فينفيه:

أ: - أن محمداً ﷺ لم يتغير خلقه وتقواه، ولم تضعف خشيته لربه بعد الهجرة لينتحل من أهل الكتاب وينسبه إلى الله سبحانه زوراً، فقد كان في المدينة: «يقوم الليل حتى تورمت قدماه» الحديث هو: «قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه»[2] وكان يُرى: «ساجداً حتى يُظن أنه قُبض!».

ب: - كانت الأكثرية من يهود المدينة برئاسة أحبارها تعاديه، وتحاول إحراجه بأسئلة دينية وتاريخية وقصصية لإضعاف أمره وثنيه عن عزمه، فكيف تطلعه على الكتاب الذي بين يديها لينتفع منها ويعزز بها رسالته؟ومما يبرهن على إخفائهم للكتاب الذي بين أيديهم قول القرآن الكريم في معرض التحدي لهم ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: 93]

جـ: - أما الذين آمنوا به من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره، فلا يعقل أن يعلموه وهم الذين أسلموا على يديه وسلّموا بنبوته؛ إذ كيف يسلم أولئك الأحبار دون أن يروا صدقه ويتحققوا من علامات نبوته، وهم علماء بالكتاب؟ وكيف يدّعي محمد ﷺ النبوة في مكة وينشىء الوحي اللازم لها، ثم يعجز عن مواجهة مقتضيات تلك النبوة في المدينة بإحضار العلم الديني الكامل لمجادلة من له علم من الكتاب فيها، إنّ هذا لباطل لا يستقيم في فكر..

(1) المصدر السابق، المسيحية القديمة، تايلور، مجلدا، ص: 266.

(2) رواه البخاري برقم: 1130، 4836 كتاب التفسير، باب: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: 2] ومسلم برقم: 2819.

هـ: - ذكرنا سابقاً أن القرآن الكريم يختلف عن كتاب أهل الكتاب فيما ذكره أحياناً فكيف صوّب محمد ﷺ أخطاء الروايات الواردة في الكتب الأخرى؟ وما هي وسيلته العلمية لذلك؟.

لذلك يقول موريس بوكاي: «إن رواية الطوفان في العهد القديم غير مقبولة في إطارها العام وذلك لسببين يتضحان على ضوء المعارف الحديثة:

أ - يعطي العهد القديم للطوفان طابعاً عالمياً.

ب - تحدد الرواية الكهنوتية زمن الطوفان في عصر لم يكن من الممكن أن تقع به كارثة من هذا النوع.. وعلى العكس من ذلك فإن رواية القرآن تتضح خالية من أي عنصر مثير للنقد الموضوعي» ويتساءل: «فمن عصر رواية التوارة إلى عصر تنزيل القرآن هل حصل الناس على معلومات من شأنها أن تلقي نوراً على حدث مثل هذا؟ بالتأكيد: لا، فمن العهد القديم إلى القرآن كانت الوثيقة الوحيدة التي في حوزة الناس عن هذه الحكاية القديمة هي التوراة بالتحديد، وإذا لم تكن العوامل الإنسانية تستطيع أن تشرح التغيرات التي طرأت على هذه الروايات لتتجه بها إلى التوافق مع المعارف الحديثة فيجب أن نقبل شرحاً آخر، وهو أن هناك تنزيلاً من الله قد جاء بعد التنزيل الذي تحتوي التوراة عليه»[1].

إذاً تبين لنا أن محمداً ﷺ لم يأخذ القرآن الكريم من واقعه أو من الوضع المكي كما زعم مونتغمري وات، أو من المصادر العلمية المتيسرة في عصره، بشهادات معطيات الوثائق التاريخية، والتفسير العلمي لأحداث حياته وخلفياتها..

وإضافة إلى كل ذلك فإنه ﷺ لم يمر بمراحل العملية التحديثية؛ فلم

(1) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة. موريس بوكاي. ط4 سنة 19977 دار المعارف. بيروت ص 344 - 248.

يدخل مرحلة الإعداد إذ لم يقم بتجميع العلم وموازنة الكتابات والحوار مع المختصين، كما لم يمر بمرحلة الحضانة والاختمار لأن العقل إذا ما توصل بمفرده إلى حكم للشريعة فإنه لا يمكن أن يتوصل إلى الأمور الغيبية التي تقع خارج نطاق العلم البشري وآلاته المحدودة، كما أن المسائل التاريخية لا يمكن أن تختمر في فكر إنسان مثل محمد ﷺ أو غيره، ثم ينشأ من ذلك المزيج العجيب من الفكر المتناقضة والعلم المتداخل، اليقيني والظني والخيالي، المستقى من مصادر كتابية وشعبية، كتاب فيه سائر الأمور القصصية في صورتها الصادقة المجردة عن الظن والنقص والزيادة والتحريف والتشويش، ذلك لأن التاريخ الماضي لا يمكن تمييز حقه بالتفكير الفردي وحده، خصوصاً وأن محمداً ﷺ لا يقرأ ولا يكتب، ولم تكن أمامه وثائق صائبة يمكن تصديقها أو الاحتكام في النهاية إليها، وكيف كان بوسعه أن يتخلص من تأثير عصره وخصوصية رأيه؟.

أما مرحلة الإشراق والتنوير التي قال علماء النفس عنها: إن الفكرة أو الحل يثب متكاملاً تلقائياً إلى فكر العبقري مع شعور بالثقة والاطمئنان والسرور في اكتشاف شيء جديد، فإن حالة محمد ﷺ أثناء نزول الوحي كانت متناقضة تماماً لميزاتها؛ فالقرآن الكريم لم ينزل كاملاً كما علمنا، والحل المزعوم لم ينبعث تلقائياً داخلياً، إنما نزل خارجياً: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 97] منجّماً كما ذُكر، وقد كان ﷺ أبعد الناس بدءاً عن الشعور بالاطمئنان والمتعة والسرور: «**لقد خشيت على نفسي**»[1] البخاري..

وقد مر بنا في دراسة الوحي ما عاناه من مشاعر الخوف، والرهب، والدهشة، أثناء نزوله وبعده، علاوة على ما ذكرناه من البراهين على انفصال الوحي عن إرادة محمد ﷺ وتفكيره وعاطفته.

(1) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب برقم 3، وأخرجه مسلم برقم 160.

أما مرحلة التحقيق والبرهان فلم يمر بها النبي ﷺ، ولما أذن له ربه أن يتحقق ويتثبت من صدق الحق الذي نزل عليه بمساءلة أهل الكتاب بقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: 64] فإنه ﷺ لم يشك ولم يسأل[1].

ثم إن القرآن الكريم قد ثبت إعجازه لدينا من سائر وجوهه، وعباقرة البشر لم يعجزوا أشباههم أو منافسهم أو التالين لهم أو المعاصرين في سائر المجالات، لأن لكل عبقري أو مبدع مواهبه وسماته وطريقته في التأليف والتفكير، وعلمه المحدود بفضاء عصره، ولذلك يتشكل ما يتميز به وفق حدود معينة وشكل خاص، وتعلو بعض جوانبه وتسفل غيرها، ويبدع في بعض، ويعجز أو يسف في سواها، ويأخذ موضوعاً ويهمل آخر، ولذلك يمكن أن يكون القرآن الكريم ميزاناً للعبقريات البيانية والعلمية والفكرية والقانونية والتشريعية تقدر به بدرجاتها ومستوياتها وعلوها ودنوها من المثال الأعلى.

والعبقرية كما يرى البعض امتياز يشترط فيه اختلال توازن أعضاء صاحبها ووظائفها، وترافقها دائماً مظاهر شذوذ، لأن تركيزه لنشاطه في إحدى ملكاته إنما يكون على حساب غيرها من الملكات، فالتفوق والامتياز في ناحية يستلزمان ويعقبان الضعف والنقص في النواحي الأخرى، فكلما ازدادت الثقة والإيمان بفكرة ما والتخصص فيها ظهر الضعف في أخرى، أما محمد ﷺ فقد كان ينتفع بكامل قواه العقلية والجسمية والخلقية والنفسية، بل كان يمتاز ويتفوق في مايملكه منها، وذلك برهان على نبوته، أما القرآن الكريم فلم نجد فيه إلا الحق والصواب، يقول مالك بن نبي رحمه الله: «عبقرية الإنسان تحمل بالضرورة طابع الأرض حيث يخضع كل شيء لقانون المكان والزمان، بينما يتخطى القرآن هذا القانون، وما كان لكتاب بهذا «التأثير» أن يتصور في حدود

(1) انظر تفسير الآلوسي ج 15، ص: 129.

الأبعاد الضيقة للعبقرية الإنسانية، ومن المقطوع به أنه لو أتيح لأحد من الناس أن يقرأ القرآن قراءة واعية يدرك خلالها رحابة موضوعه فلن يمكنه أن يتصور «الذات» المحمدية إلا مجرد واسطة لعلم غيبي مطلق، . . وفضلاً عن ذلك فإن هذه «الذات» تشغل فيه مكاناً ضئيلاً؛ إذ نادراً ما يتحدث القرآن عن تاريخ محمد ﷺ الإنسان وعن آلامه العظمى ومسراته»[1] إنها النبوة!.

النبوة... وشبهات المعاصرين

لم يفلح أكثر حملة الفكر الغربي في فقه نبوة محمد ﷺ لأن ذلك يقتضي تخلصاً من كل الميول والاتجاهات الفلسفية العصرية الشائعة، وحباً للحق، وتطبيقاً سليماً للمنهاج العلمي في البحث، واستعداداً لقبول آثاره أياً كانت. . . وقد كان المنظور الاستشراقي لنبوة محمد ﷺ ناقصاً ومحرفاً[2]، ويتسم بـ:

«الشهوة والهوى والعصبية، وعدم اعتماد الأخبار الصحيحة ودراسة بيئة الرسالة كما هي»[3] زيادة على التوجه التنصيري والسياسي والجهل والعجز عن فقه ماضي الشرق وحاضره بوزنه على ماضيهم وحاضرهم مع ابتغاء المنافع المذهبية في الحياة الاجتماعية من وراء الدراسة[4]. وتقوية المركزية الأوروبية بدراستهم. .وقراءة النبوة وغيرها وفقاً لمسلمات الفلسفة اليونانية[5]. ومنهم من فسر النبوة بالتفسير البطولي مثل توماس كارلايل،

(1) الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ص: 18.
(2) حياة محمد ﷺ، إميل منغهم، ص: 8 - 11.
(3) محمد رسول الله ﷺ، أيتين دينيه، ص: 33.
(4) ما يقال عن الإسلام، العقاد، ص: 135.
(5) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، ص: 316 - 320.

وبعضهم قال حقاً مثل أرنولد توينبي صاحب نظرية التحدي والاستجابة بقوله: أن جبريل كان: «ينقل الوحي إلى محمد ﷺ»[1]. وماكس فيبر فسر النبوة بتفسيره الحضاري بانتصار قيم الحضارة على قيم البداوة وقوة المدينة على قوة الصحراء، لكنه أكد أن الرسول ﷺ كان: «ذا رسالة نبوية خالصة».. ولكن لماذا لم تظهر النبوة في اليمن وإيران وبلاد الروم الشرقية التي كانت متقدمة حضارياً وفيها مجتمعات مدنية وحكم مركزي، ولماذا ظهر موسى عليه السلام من قبل في مدين وعلى سواحل البحر الأحمر، ولم يبعث في مصر ذات الحضارة الفرعونية..

وقد بين تيرنر[2] بأنه لا بد من فقه للإسلام وأخذٍ لما يقوله بجد، وأنه: «لم تعد التفسيرات الأحادية لسبب نشأة الإسلام تلقى احتراماً في الأوساط العلمية كرأي كايتن حول الانفجار السكاني، أو بيكر في الضرورات الاقتصادية، وبليف حول الصراع الطبقي في مكة، ولقد أصبح ينظر إلى مثل هذه الآراء على أنها تفسيرات في نشأة الإسلام مبالغة وأحادية البعد».. ودعا مونتغمري وات مرة إلى الحياد في أمر نبوة محمد ﷺ.. ودعاهم د. عماد الدين خليل في بحثه المستشرقون والسيرة النبوية إلى تجاوز: «عوامل الشد الزمانية والمكانية والمذهبية والنفسية والنسبيات وضغوط الإسقاط المرحلي».

وسنبيّن فيما يلي قصور المدارس الفلسفية التي تشك في الله سبحانه والغيب والوحي، خاصة في تفسير نبوة محمد ﷺ.

أ - الفلسفة المادية الغربية:

يظن الماديون الغربيون أن الأنبياء انبعثوا - ولم يُبعثوا - بتأثير الحاجة الفكرية والنفسية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عاناها أفراد

(1) تاريخ البشرية، أرنولد توينبي، ص: 54.
(2) علم الاجتماع والإسلام، تيرنر، ص: 59.

مجتمعاتهم، وقد كان أولئك الأنبياء عليهم السلام مرهفي الإحساس، شديدي الذكاء، أقوياء التخيل، قادرين على توجيه تلك الحاجة في النفس والعقل والجسد بتحريك ذويها بصورة جماعية ومجابهة الآخر بهم، كي ينالوا رغباتهم ويحققوا أمانيهم. ومنهم من يفسر بذلك نبوة نبينا محمد ﷺ مثل ما ذكر في كتاب الشخصية المحمدية لمعروف الرصافي، وما ذكره مونتغمري وات في كتابه: «محمد في مكة»، وإذا أحسنوا الظن فإنهم يعزون دعوة الأنبياء عليهم السلام إلى عاطفة إشفاقهم الإنساني أو ميلهم الإصلاحي أو اتجاههم الخلقي ودورهم البطولي.

يقول توماس كارليل مثلاً وهو يظن أنه يسوق مديحاً للنبي محمد ﷺ: «القرآن - لو تبصرون - ما هو إلا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال في الخلوات الصامتات، وكانت الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح البصر وتتزاحم في صدره... إلى أن يقول: وقد أتخيل روح محمد ﷺ الحادة النارية وهي تتململ طول الليل الساهر يطفو بها الوجد ويرسب، وتدور بها دوّامات الفكر، حتى إذا أسفرت لها بارقة رأي حسبته نوراً هبط عليها من السماء، وكل عزم مقدس يهمّ به يخاله جبريل ووحيه!!»[1].

ويفسر توينبي النبوات بالاستجابات الخلاقة في النفوس الإنسانية، ويزعم أنها أفعال حرة من الإنسان بصفة حقة[2]..

لقد كان مجيء الأنبياء عليهم السلام بتوقيت وأمر من الله سبحانه، كما أنهم لم

(1) الأبطال، توماس كارليل، تعريب. محمد السباعي، ط4، سنة 1982، دار الراشد بيروت. ص: 85 - 86.

(2) المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس إلى توينبي. تأليف: ألبان ج. ويدجيري، ترجمة ذوقان قرقوط، دار القلم ط1 سنة 1972.

يكونوا تجاراً أو دجالين يبررون لأتباعهم دوافعهم وأهواءهم وحاجتهم مقابل كسب ودهم وشراء طاقاتهم وملكاتهم لأنهم كانوا منهاجيين مرتبطين بمنهاج حياتي لا يملكون الحيدة عنه أو ترك بعضه أو إعفاء أتباعهم من بعضه، وكما يقول د. علي شريعتي إذا:

«كان الإسلام نتيجة لظروف «مكة» الاجتماعية، إذن لماذا كانت هذه البيئة مثل الحجر الصلد في مواجهة هذه البعثة ومقاومتها».. فحتى السنة الخامسة للهجرة لم يؤمن إلا القليل وهاجر آخرون للحبشة خلاصاً من الفتنة.. فلو صدق التفسير الحضاري لقبله أئمة مكة ووجهاؤها وأبرز تجارها..مع أننا نجد أن أهل المدينة الوسط الزراعي البدوي القبلي هم الذين يؤمنون..

وأنه كما يقول في نفس الصفحة كان من المفترض أن يخرج الرسول ﷺ: «في القلب النابض القوي لأكثر الحضارات تقدماً»..

إن هناك خلطاً بين كون الشعوب تتطلع إلى دين أو منهاج حياة ينقذها من الشرك والفساد وبين كون الإسلام أثراً بشرياً أنشأه بشر لإصلاح وضعي ذو سمة دينية.. وذلك هو التفسير الوضعي أو الحضاري للتاريخ الذي وضعه فيكو وقسم فيه الدورات الحضارية إلى ثلاث: عصر الآلهة وعصر البطولة وعصر الإنسان، ووضع 114 مسلمة قابلة للجدال والرد والاستثناء بالاستقراء العلمي الماضوي.. فالمراحل الحضارية قد تتداخل، وقد نجد هنا ديناً يجاوره آخر في فضاء عصر واحد، كما تتجاور الأسطورة مع الدين الحق، والعلم مع الظن.. وعبادة الله مع عبادة الإنسان أو البطل.. إن من الحق أن نذكر ما ذكره فيليب حتي من أنه: «دعي محمد ﷺ إلى تأدية رسالته كما دعي أنبياء الله السابقون»[1].. ولم يكن كفر المشركين بالرسالة لأنهم خافوا من

(1) في تاريخ العرب، ص: 157.

زوال قدر الكعبة فقد عظمت الكعبة وحرمت ولم ينل منها. .لقد كان شعور جديد بالعالم وأمر آخر بين الله والإنسان من عوامل منع الاستجابة[1].

إن التفسير النفعي كما تقول عفت الشرقاوي كان من أثر الملابسات الاقتصادية في أوروبا. . فلا يمكن تفسير نبوة محمد ﷺ به. . فلم يحدث تحول في وسط الرسالة في عصره ﷺ من اقتصاد البدو إلى اقتصاد رأسمالي تجاري كما يقول مونتغمري وات، ولم يحدث تبدل فكري وأخلاقي واجتماعي وديني قبل الرسالة، وإن زعم كليموفيج بأن الوحي ظهر استجابة لمنافع الملاك والإقطاع أو تحدياً لمنافع الطبقات الحاكمة كما ذهب بلاييف لا يستقيمان. .

وبإمكاننا ملاحظة الفروق البينة بين الأنبياء عليهم السلام وبين سائر المصلحين والزعماء والقادة الثوريين بعرض مختصر لخصائص الأنبياء الفريدة:

1 - جاء الأنبياء عليهم السلام بعلم وإيمان مجهولين عن فضاء العصر مما يبرهن على أن ما جاؤوا به هو من الوحي ويثبت عدم تشكلهم وفق التركيب العصري السائد، يظهر ذلك في صيحات الإنكار التي أطلقها رجال الفكر والسياسة في أقوامهم، فقد قيل لموسى عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ [يونس: 78]، وقيل لنوح عليه السلام ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 24]، وقيل لشعيب عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: 91] بل يقول الله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 23].

1 - الأنبياء عليهم السلام بشروا ودعوا إلى أخلاق ومنهاج في المال والاجتماع والحكم غير متأثر بالتوجهات الفردية والمجتمعية في أممهم، فلوط عليه السلام مثلاً نهى عن عرف قومه الأخلاقي أو اللاأخلاقي المعترف به بالإجماع

(1) كما يقول أزوالد شبنجلر في ص 10 ج3 من كتابه تدهور الحضارة.

تقريباً، ويزجر قومه - وحده - قائلاً لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: 81]. وشعيب عليه السلام يستنكر - وحده - على قومه الشرك وغياب الأخلاق في الحركة المالية قائلاً لهم: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: 84]. . ومئات من الأمثلة في حياة الأنبياء عليهم السلام تؤكد تميزهم وإنكارهم للمعمول به المعترف بشرعيته في مجتمعاتهم. بل إن التحولات البيّنة التي أحدثها الأنبياء عليهم السلام في الناس لهي خير شاهد على ما نقول، لذلك يقول ديرمنجيم: «إن الأنبياء عليهم السلام يفرضون أنفسهم على العالم كالقوى «الطبيعية» والعظمى الخيرة، كالشمس والمطر وكعواصف الشتاء التي تصيب الأرض الجرداء لتكسوها بالخضرة في بضعة أيام فبثمارهم ينبغي أن يُحكم عليهم. إن أفضل براهين رسالاتهم هي العقول المطمئنة والقلوب المفعمة بالسكينة والإرادات القوية والمخاوف المستحيلة إلى هدوء والأمراض الأخلاقية التي أبرؤوا الإنسانية منها»[1].

2 - كون الأنبياء عليهم السلام من ذوي الكفاءات الفكرية والملكات الجسمية والعقلية والخلقية الممتازة لا يقتضي إنكار نبوتهم وتفسيرها علمانياً، بل لأن التبليغ يقتضي ذلك، قال تعالى في بعضهم: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: 45]، وقد قيل لشعيب عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: 87] والحليم هو الواسع الصدر البعيد النظر القادر على التجميع، والرشيد هو ذو الأفق الواسع الصائب الرؤية الكثير التجارب والخبرة، وقيل لصالح عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: 62] والمرجو: هي الذي يرجى لكل أمر ذي بال مهم، وكذلك موسى

(1) حياة محمد، إميل درمنجيم، ص: 278.

وعيسى، ومحمد ﷺ ليس بدعاً منهم، فلو لم يكن أولئك أنبياء إذاً لتأثروا ولا شك إلى حد معين بالأرض وفضاء العصر، ولملكوا حظاً وافراً من الدنيا بحكم خصائصهم العقلية والجسمية ولانساقوا مع لذاتهم، وساروا في نفس الطريق الذي يسكله هواة الزعامة والمجد لبلوغ مآربهم، ولكن العكس كان هو الواقع من أكثر الأنبياء عليهم السلام إذ أنهم بلغوا ديناً يخالف الهوى ومقتضيات واقع غير صالح، ويزيل الفواصل المصطنعة بين الخلق، ويذيب الفروق الطبقية بينهم، حتى أن أصحاب المراكز جعلوا موقف الأنبياء عليهم السلام وما اقتضاه من أمور عملية في الحياة الواقعية نقطة ضعف في رسالاتهم وحاجزاً يصد أمثالهم من المتعالين عن الدخول معهم، فقالوا للأنبياء عليهم السلام مثل هذا القول: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27]. وطلبوا منهم إقصاء المستضعفين ليتسنى لهم مجالستهم والاستماع إلى دعوتهم، فلو كان الأنبياء عليهم السلام طلاب دنيا أو كانوا مجرد مصلحين وضعيّين لجعلوا للكبراء مقاعد من الدرجة الأولى، ولأرسلوا لهم بطاقات خصوصية ليحضروا مشكورين، ولعقدوا معهم اجتماعات مفردة مغلقة لا يحضرها سواهم ولا يدخلها غيرهم من (العامة)، ولكن النبوة هي غير عطاء الأرض، والتفريط بها ليس من شيمة الأنبياء عليهم السلام، لذلك تراهم يردون على طلبات الكبراء بمثل هذه الردود: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [هود: 29]: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ [هود: 30] إذاً فالأنبياء عليهم السلام لم يميلوا إلى طبقتهم وأمتهم، بل عاملوا الجميع معاملة واحدة؛ فالكل عباد الله أكرمهم عنده أتقاهم.

ثم إن ما صدق في حالة الأنبياء عليهم السلام عموماً من تكذيب ظن الماديين والمستشرقين، ليظهر في حالة النبي محمد ﷺ بشكل أبين وأكمل وأجلى، فهو خاتم الأنبياء عليهم السلام، وإليك البرهان.

1 - فيما يخص ما جاء به الأنبياء من دين يخالف كثيراً التصورات

الاعتقادية الشائعة في مجتمعاتهم فإن النبي محمد ﷺ قد جاء به كذلك. . . ومنه توحيد الله سبحانه الذي دعا إليه فأثار به عجب قومه حتى قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: 5] والإيمان بالبعث بعد الموت والذي أنكروه قائلين: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: 5]. . ولقد صوّب ﷺ ما في محيطه حول مفردات كثيرة كالجن والملائكة والقدر وغيرها.

2 - لقد ظهر لكل باحث بأن ما دعا إليه ﷺ من شعائر العبادة والأخلاق ومناهج الحياة لم يكن خارجاً من محيطه و: «لم يستمد أصوله ولم يتطور من صميم ذلك المجتمع»[1] أي أنه كان مبايناً لعرفهم، مغايراً لواقعهم. . . وتدبر القرآن الكريم يظهر ذلك.

3 - مر بنا أنه كان وسط النسب، ذا مكانة ممتازة في المجتمع، مع ما كان يملكه من الخصائص العقلية والمواهب السياسية الفذة. . ولا يتوقع من أمثاله ممن لهم مثل هذا الانتماء الاجتماعي الخاص والملكات الموروثة إلا الاندفاع لتبوأ موقع زعامي مناسب بين وجوه القوم البارزين. ، . . لكن على العكس مما كان متوقعاً منه، لم يتجاوب مطلقاً مع أولئك الوجوه لا في اهتماماتهم ومطامعهم، ولا في تصوراتهم وعقائدهم، لا قبل البعثة ولا بعدها حين عرضوا عليه عروض السلطان والمال والحكم.

إذاً فالنبي ﷺ لم يسر في طريق الطبقة العلية ولا تاق إلى مطامعها الطبقية. . بل توجه بدعوته إلى الجماهير العريضة، وكان أكثر أتباعه من الفقراء حتى أن المستكبرين طلبوا منه إقصاءهم عن مجلسه كشرط أولي ليسمعوا منه ويحاوروه، فنهاه الله تعالى عن هذا المطلب الطبقي المتعالي إذ قال له: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا

(1) من حضارة الإسلام، هاملتون جيب، ص: 238.

تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28].

وقد جعل هرقل هذه القضية أي كون غالبية من تبعه من الفقراء برهاناً على نبوته حيث قال لأبي سفيان: «وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل»[1]، وقد ذكر ابن كثير في تفسيره قصة رجل كان يقرأ الكتب السابقة، ثم آمن بالرسول ﷺ بعد تثبته من كون أكثرية من تبعه هم من المساكين.

ب - المادية التاريخية:

إذا كانت المدرسة العلمانية الغربية تفسر الظواهر التاريخية عموماً والنبوة تفسيراً يغفل الوحي العلي على حدود الإمكانات البشرية، وتعزو دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام إلى نشاطهم الأدبي والأخلاقي وميلهم الإصلاحي الإنساني ومعارفهم المكتسبة أي أنه: «نتاج للإنسان الذي يعتبر حراً في تغييره إذا أراد»[2]... فإن المادية التاريخية تغلو في التطرف حين تتصور أن الدافع المادي وحده دون غيره هو العامل الأول والأخير في نشأة كل فكر، وظهور كل ظاهرة،.. وتكون كل دعوة ومنها النبوة.

يقول بليخانوف مثلاً: «إن الوضع الاقتصادي لشعب ما هو الذي سيحدد وضعه الاجتماعي، والوضع الاجتماعي لهذا الشعب يحدد بدوره وضعه السياسي والديني، أما السبب الاقتصادي فهو السبب الأساسي لمجموع التطور الاجتماعي، وبالتالي لكل حركة تاريخية»[3].

ومن هذه المنطلقات التاريخية فسروا الوحي، بأنه: «كان نتيجة لصراع

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج 3، ص: 54.
(2) جدلية القرآن، د. خليل أحمد خليل، ص: 13.
(3) فلسفة التاريخ: بليخانوف. المفهوم المادي للتاريخ، ص: 45.

قوى اجتماعية حول تملّك «الطبيعة» والمجتمع»[1]، وزعموا بأن الأنبياء عليهم السلام إنما عملوا على: «تكوين قوى اجتماعية صاعدة تاريخياً وترويضها «كذا» على إطاعة الحكم الجديد»[2]..

وخلاصة ما يقصدونه هو أن الباعث الطبقي الخالص هو الذي دفعهم لإحساسهم بالتباين الطبقي بين طبقتهم المحرومة والطبقة العليا المالكة المتنفذة التي تستغل أفراد طبقتهم، فحاولوا التغيير والثورة لانتزاع ملكية الحياة والمجتمع من المستكبرين وحصرها في أفراد طبقتهم باستعمال الفكر الديني وسيلة وأداة لتحقيق غايتهم المادية... لكن الأنبياء عليهم السلام لم يجمعوا الناس تحت شعارات وضعية أو طبقية، بل كانوا يستثيرون في الخلق فطرتهم الدينية ويدعونهم إلى إيمان ومنهاج حياة لا تغطي الدنيا في أصولها سوى مساحة مناسبة لمداها ووزنها عند الله والحق الذي أنزله.. فما من نبي بعث إلا قال لقومه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: 65]، وكان كل من يؤمن يقبل في جماعة المؤمنين أياً كان انتماؤه الطبقي أو مستواه المالي أو درجته الاجتماعية، والعكس كان صواباً؛ فكل من أبى عبادة الله وتوحيده لم يجد مكاناً في الصف المؤمن... اقرأ هذه الآية الكريمة لتجد مصداق ذلك: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 75] أي أن المستضعفين توزعوا فريقين بعد كل دعوة نبوة: منهم المؤمنون ومنهم دون ذلك!.

وما نلاحظه في حياته ﷺ أنه كان يدعو الناس إلى كلمة واحدة وهي كلمة التوحيد؛ وإن كان الإيمان له مطالب مالية أو تغييرات اجتماعية معينة

(1) جدلية القرآن: ص69.
(2) المصدر السابق.

يفرضها، فلم يكن ﷺ يطمع أحداً من المؤمنين الأوائل برخاء قريب، أو بروز اجتماعي، ومرت سنوات عجاف ومتوسطو الحال من أتباعه افتقروا، والفقراء منهم كادوا أن يعدموا لما تعرضوا له من المقاطعة والتهجير وسلب الأموال وتعطيل الأعمال. . . . وهاجر هو ﷺ وأصحابه إلى المدينة، تاركين أموالهم ومساكنهم، طيبة بها قلوبهم، راضية بها أنفسهم، . . . . وفي المدينة كذلك لم يتغير الحال كثيراً فلم يكن عجباً أن ترى منظراً: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 273] أو تشهد منظر من لا يملك نفقة الذين: ﴿تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: 92]، بل هناك روايات تذكر أن منهم من كان يتهاوى في الصلاة ويقع جوعاً حتى يظن به الجنون! . . . وبعضها يذكر خروج آخرين في أزقة المدينة المنورة جوعاً ثم يلتقون برسول الله ﷺ الذي مر بنفس تجربتهم. . . . وكان عليك أن تتمالك نفسك وتضبط عاطفة الرحمة في قلبك لكيلا تبكي بحرارة على أكثر شباب مكة نعيماً وحسناً حين مات شهيداً بعد إيمانه فلم يترك من الثياب ما يستر جسمه حين دفنه. . فهناك عامل الإيمان هو الذي جمع الناس من حول الإسلام لا العوز المالي، «فالإنسان ليس مجرد مختبر كيمياوي يسيره الجوع أو الشهوات»[1]، وهو: ليس مجرد حطام طاف على محيط الضرورة يصعد وينزل مع المد والجزر الحتميين للظروف ويندفع هنا وهناك مع تيارات الزمن»[2]. وحتى إنجلز وثق بأن الدين وغيره من العقائد والفكر تكون لها الغلبة في كثير من الأحوال في مجرى الكفاح التاريخي لا ما يسمى بالبنية التحتية وحدها، وأقر كول أن: «أشكالاً حضارية لا يمكن أن تفسر تفسيراً اقتصادياً محضاً». ولو كانت البنية التحتية هي التي تصنع الدين لما رأينا

(1) تفسير التاريخ، مظهر الدين حديقي، ص: 17.
(2) المصدر نفسه، ص: 53.

وجوهاً عدة من الدين في فضاء عصر واحد وملابسات اقتصادية متماثلة.. ولما رأينا مجتمعات راكدة ومتخلفة لم يحدث فيها تغير مشهود إلا بالوحي..

وقد ركز توينبي على دور العامل الديني في صناعة التاريخ. وقد بين أن الإسلام لم تكن حركة مستضعفين خالصة تركز على الدرجة السفلى من السلم الاجتماعي، بل كان للطبقة الوسطى دورها المؤثر. وقد كان عمل الرسول ﷺ أكثر من إزالة الفروق بين الأغنياء والفقراء كما يقول التهامي نفرة في دراسته القرآن والمستشرقون. ونجد مثلاً كاتباً مثل نظمي لوقا يفسر إيمان أبي بكر الصديق بحب الحق. وأنه قدم ذلك على صلاته الأليفة بالناس ومودته الشفافة لهم. .كما نجد العقاد يفسر إيمان عمر بأسباب من الإيمان وسأمه من حياة الجاهلية مع نزعة عائلته الدينية المتمثلة في تحنف أحد رجال عمومته وهو زيد بن عمرو بن نفيل، وسبق أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد إلى الإيمان وذلك في كتابه «عبقرية عمر».. ولكل قصته مع الإيمان..

قرن القرآن الذي سماه أحد الكتاب جيلاً لم يكن توّاقاً إلى تملك المجتمع للعلو والفساد، ولم تكن الدنيا أكبر همه، إنما كان يرجو إقرار حكم الله سبحانه في الأرض وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، هكذا علمهم الرسول محمد ﷺ الذي جعل نفسه أسوة لهم في العمل الخالص لله والجهاد في سبيله وابتغاء مرضاته والاكتفاء من الدنيا بما يحفظ الحياة ويعاون على البقاء، والاستعلاء على المشاعر الطبقية الضيقة، والشهوات الدنيوية الزائلة، والأهواء النفسية العارضة... والنظر إلى الناس كافة نظرة واسعة مشفقة على تغلب حب العاجلة على قلوبهم وصراعاتهم الدموية في سبيل الاستئثار بالملك والمال.

ومن هذا المنطلق الإنساني الواسع توجه الرسول ﷺ بدعوته إلى كل الناس دون تفريق أو تمييز، ولم يكن يخفي رغبته الشديدة في إيمان زعماء

قريش وسادتها.. وقد عاتبه الله سبحانه على تركيزه وإلحاحه على ذلك،.. ولم تتغير هذه الرغبة الشعورية في نفسه حتى وهو في المدينة بعيداً عن أذاهم القريب، بل حتى وهو يفتح مكة ويدخلها ظافراً منتصراً.... فقد ظل يؤلف قلوبهم ويستميل مشاعرهم ويكتسب ودهم لكي يبين لهم أن النبوة غير الملك، وأن الإيمان أعلى من قيم الأرض، وأن الآخرة خير من الأولى.

وإذا كان جمهور أتباع النبي ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام من قبله من الضعفاء والفقراء فليس لأنهم عليهم السلام كانوا طبقيين، بل لأن المستضعفين أسرع استجابة للحق الذي حرموا من معرفة مصادره، وأشد رغبةً في الخير الذي ما ذاقوا طمأنينته، وأرهف إحساساً بفداحة الظلم الذي آلمهم وخزه، وأبعد عن الترف والطغيان، وأكثر تجرداً من الغرور والاستكبار، وأجمل صبراً على تكاليف الإيمان ومقتضيات التغيير ومشقات الثبات والجهاد.. وإذا كان المترفون أو الملأ أو المستكبرون: «أولو النعمة والحشمة والرياسة» لم ينفكوا عن مواجهة الرسل عليهم السلام بمقولتهم التقليدية الجاحدة: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبإ: 34]، فليس لأن الرسل عليهم السلام قد أعرضوا عن دعوتهم إلى الله سبحانه بدافع طبقي منحاز ودعوا أتباعهم إلى إهلاكهم سراعاً، بل لأن المال والرئاسة قد تدفع أصحابها غالباً إلى العلو والتكبر، والاستغناء والفخر، وحسبان الخلود، وإنكار الغيب والبعث، وعصيان الله سبحانه ورسله عليهم السلام والمذكّرين به، والانشغال بعبادة النفس واتباع الهوى، والاستخفاف بالحق والداعين إليه... إنهم ينظرون إلى المحرومين من زينة الحياة نظرة فوقية ساخرة، ولو كانوا رسلاً أطهاراً آتاهم الله حكماً وعلماً وحلماً ورشاداً، ويستحيل عليهم أن يتنازلوا عن مواقعهم الزعامية، ومنافعهم المالية غير المشروعة، وعقائدهم التاريخية، وتقاليدهم البالية، لوحي الأنبياء عليهم السلام.

وإذا عرضنا آيات القرآن الكريم المبينة لمشاهد القيامة لوجدنا من بينها هذه الآيات التي تبين لنا بأن المستضعفين لم يكونوا كلهم في صف الأنبياء

والمرسلين عليهم السلام، إنما كانوا فئتين والت إحداهما الأنبياء عليهم السلام بعد أن آمنت، ووقفت على فطرتها الإنسانية الكريمة، واستيقظت على الحق... بينما غلبت على الفئة الثانية شقوتها وكفرت بالحق، وأخلدت إلى الأرض، وقبلت العرف الجائر الذي أخضعها للمستكبرين، فغابت معالم أفرادها، وضعفت صلاتها، وانحسرت ملكاتها، فكان جزاؤها الحشر مع المستكبرين: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبإ: 32] إلى آخر الآيات.

ولقد تواجد بين أتباع محمد صلى الله عليه وسلم على سبيل المثال رجال أغنياء أمثال عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم، ورجال أقوياء أمثال أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهم كما بقي إلى وقت متأخر في صف المعارضة الشركية ضعفاء لا يمكلون شيئاً حتى الحرية، سلبها منهم كبراء قريش كوحشي وأضرابه.

ولا يقتضي هذا أن الأنبياء عليهم السلام لم تكن لديهم مشاعر مرهفة بمعاناة المحرومين والفقراء، أو أنهم لم يبذلوا ما في وسعهم للقضاء الشامل على ما آذى حياتهم من حرمان وجهل واستعباد واستلاب واغتراب،... ولا وجه لما ادّعاه بعض المؤرخين من أن الأنبياء عليهم السلام وبضمنهم خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم لم يحققوا في هذا المجال شيئاً مذكوراً، وأنه صلى الله عليه وسلم: «لم يهدف إلى استئصال أسباب الشر الاجتماعي... بل كانت غايته الكبرى أن يخفف من وطأة تلك الأمراض.. كمثل سائر الأنبياء عليهم السلام الذين سبقوه، لا سيما أنبياء بني إسرائيل»[1]... كما أن من أبعد التهم عن العلمية والحق اتهام الأنبياء عليهم السلام بتخدير الناس لكيلا يشعروا بواقعهم البائس ومعاناتهم الأليمة ومشاكلهم الاجتماعية والمالية المتراكمة... ذلك أن من يفكر في مناهجهم وحياتهم

(1) من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، بندلي جوزي، ص: 44 - 45.

وبخاصة ما جاء به النبي محمد ﷺ من الكتاب، وما اتخذه من المواقف الحياتية، فإنه يتيقن بأن دعوتهم إنما كانت لتحرير الإنسان من عبادة سائر الآلهة والجبارين المتسلطين على الناس وشعورهم وأوضاعهم. . . وأن أولئك الرجال الكرام بريئون من المدّعين للدين زوراً في بعض أرجاء الأرض الذين مالوا عن منهاج الله سبحانه، وحرفوا وحيه، وعطلوا شريعته، وجعلوا أنفسهم أرباباً من دون الله سبحانه، وصادروا تطلعات البشرية إلى العدل والحرية، وكبتوا أملها العلمي، وابتزوا مكاسبها المالية، ونالوا من كرامتها باسم الدين؛ فمثلوا بعملهم الآثم مظهراً من مظاهر القهر للجماهير العريضة في زمانها ومكانها.

لاشك أن الأنبياء عليهم السلام غير مسؤولين عن المحرِّفين والمرتدين والذين نالهم في الكتب من الله سبحانه أشد اللوم والوعيد بالعذاب الشديد لضلالهم الفكري وهجرهم لمنهاج الدين الحق الذي دعا إليه رسل الله سبحانه. . إنهم لم يخدروا أحداً إن لم نقل أنهم أحدثوا التغيير الشعوري للمؤمنين ليستنفدوا جهدهم في الجهاد لإصلاح الأوضاع اللاإنسانية ومواجهة الظالمين والطاغين، وعبأوا فعلاً طاقاتهم البشرية ووجهوها في هذا المجال الكريم.

وإن من لم يقم منهم بالجهاد والمواجهة مع أعداء الحق، فإنه شن حملات شديدة على كل أشكال القهر والاستغلال المالي والظلم الاجتماعي، ولذلك كان المترفون أو الكبراء من أكبر معارضيهم إن لم يكونوا معارضيهم الوحيدين.

وكأمثلة على الصنف الأول: النبي موسى عليه السلام الذي واجه فرعون عصره، وجمع صفوف المقهورين ورغّبهم في حياة الحرية والعز، وبيَّن لهم أن الأرض لله سبحانه يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، وحرَّرهم أخيراً من العبودية، ثم واجهوا الجبارين، ودخلوا الأرض المقدسة.

والنبي داود عليه السلام الذي خاض معارك الحق وآتاه الله علما وحكماً فقد أدى دوراً في إقامة العدل ودفع الظلم، وعقب القرآن على انتصاره بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251].

أما النبي محمد ﷺ فإنما حققه للناس من خير عميم بجهده وجهاده، وحركته وتدبيره، وإقامة أشكال وعلاقات ومؤسسات، يجل عن الوصف، فقد أيقظ العالم من سباته، وحرر الشعوب من قيودها، وأعطى للعناصر الاجتماعية الضعيفة حقها، وأزال الكهان والسحرة والعرافين وسدنة الأوثان عن مسرح الحياة العقلية، كما كشف طمع بعض الأحبار والرهبان الذين كانوا قد أحاطوا أنفسهم بهالة من العصمة والبراءة والقداسة فأزاحهم عن حياة الناس الفكرية، أما في المجال السياسي فإنه أبعد السياسة عن الأهواء الملكية والنزعات الزعامية وجعلها محكمة ببيّنات شرعية، كما أنه طهّر كل المؤسسات المالية القائمة على الظلم والربا والأطماع البشرية اللامحدودة، مع إقامة حياة اجتماعية متميزة على العدل والحرية المحددة بالحق، فعل هذا وأكثر مما لا مجال لذكره وحصره.

أما الأنبياء عليهم السلام الذين لم يزيلوا المتكبرين والظالمين، ولم يقيموا المؤسسات التي تستعمل القوة لزجر المجرمين وتفعيل الحكم العادل في المجتمع لظروف وملابسات معينة فإنهم لم يألوا جهداً في الدعوة المخلصة إلى التغيير الأخلاقي وتبصير المحرومين بحقهم المهضوم وتحذير المفسدين من الفساد والظلم.. وكان أنبياء الله عليهم السلام مثل: نوح، وهود، وصالح، وشعيب، يمثلون هذا الصنف بشكل بيّن... فقد لبث نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو قومه إلى اتباع الحق والابتعاد عن الخطايا وترك الفجور صابراً على شتى أشكال الأذى النفسي والاجتماعي، من محيطه الذي كان يتحكم فيها المغترون برؤوس أموالهم، وجموع أولادهم، وشدة قواهم...

أما هود عليه السلام فقد شن حملات شديدة على المستكبرين من قومه الذين انساقوا وراء نزعاتهم الإجرامية، ودعاهم إلى التزام منهاج الحق وتقوى الله سبحانه، وعدم الانخداع بمظاهر القوة، والرخاء الظاهري، والتقدم العمراني والزراعي... وأنكر عليهم تباهيهم بمكانتهم وقوتهم، وخروجهم عن المشهد الإنساني اللائق بالمؤمنين المتحضرين وذلك ببطشهم الشديد بالضعفاء الذين لا يجدون ولياً ولا نصيراً.. وخضوعهم لكل جبار عنيد لا يملك في قلبه رقة ولا يقبل من ناصح حقاً ولا يرقب في ضعيف إلًّا ولا ذمة، وكان مما قاله لهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء: 128-130].

وعلى الرغم من كل جهود هود عليه السلام فإن عاداً قومه لم تؤثر فيهم دعوته: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: 15] فلم يستحقوا الاستمرار في الوجود على الأرض.

ولقد واجه النبي صالح عليه السلام المستكبرين من قومه بنفس النمط الذي واجه به هود عليه السلام قومه.. ولقد حذر الناس من اتباعهم تحذيراً شديداً، وقال لهم: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء: 151-152] - وكذلك شعيب عليه السلام لم يجد فرصة إلا قال لقومه بكل قوة: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: 85].

ومن الأنبياء عليهم السلام من وفقه الله لإقامة موازين الحق والعدل بطرق خاصة كوراثة سليمان لداود بجدارة وأهلية، وإكماله مسيرة الحكم الصالح ومتابعة البناء الحضاري.. ومنهم من أوصلته مواهبه وكفاءته وأمانته إلى مناصب متقدمة في الدولة التي عاشوا فيها، كيوسف عليه السلام الذي تولى في مصر منصب

وزير الخزانة فأنقذ شعب مصر بخطة حكيمة من مجاعة رهيبة مطوية في حجب المستقبل. وعلى العموم فإن الأنبياء عليهم السلام جميعاً لم يخرجوا عن الأخلاقيات الكريمة، ولم يفارقوا الحق والعدل، فإن كانوا في الحكم نذروا أنفسهم لإقامتهما وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وإن كانوا في القاعدة أصلحوا المجتمع وحذروا الناس من اتباع المفسدين والمجرمين.

لقد قال الله تعالى في بيان الحكمة من إرسال الرسل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]، وقال كذلك: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25]. ولقد صبروا في سبيل تبليغ رسالتهم، ولاقوا أشكالاً متنوعة من الأذى الجسمي والنفسي، ومنهم من قتل، ومنهم من اتُّهم، كما قال الله سبحانه في القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21].

إذاً فالأنبياء عليهم السلام لم يكونوا طبقيين بالمعنى المذهبي الحديث للطبقات الاجتماعية، وإن كانت أكثرية جهودهم متركزة ومتوجهة للطبقة الضعيفة المحرومة لكون هذه الطبقة الأكثر عدداً، وهي الأقرب إلى قبول الحق الخالص، وهي التي تأتي الشريعة لتضمن حقها وتدفع الأذى عن وجودها وتؤمّن منافعها المشروعة لكيلا تنتهك ببطش الأقوياء واستئثار الأغنياء.. أما عدم تكلل جهود بعضهم بالنجاح الكامل في هذا المجال فلم يكن مسبباً عن ضعف شعورهم بمعاناة الضعفاء، إنما كان ذلك لعوامل قدرية أو حضارية أو لتقنين الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفق منهاج معين... وقد يكون إصلاح الناس غير متيسر لبعضهم، أو أنهم إنما بعثوا لأداء مهمات تبليغية وإنذارية وتبشيرية محددة، فليس من العدل محاكمتهم وتقويم عملهم

في المجالات الواقعية وفقاً لإمكانات بعض المرسلين عليهم السلام، أو وفقاً لإمكانات العصر الحديث وأنماطه الشكلية ومؤسساته الاجتماعية المتنوعة، أو تقويمها قياساً إلى المثل الأعلى النظري.. إنما يُقيم ما كانوا يدعون إليه من ناحية خطابهم مقارناً بمواضعات مجتمعاتهم في عصورهم، وتقويم جهودهم مع تقدير إمكاناتهم، ومسؤولياتهم، وملابسات زمانهم ومكانهم.

النبوة والمادية الجدلية

يشير بعض المفتونين بالمادية الجدلية شبهة وجود تناقض بين النبوة والعقل، بين الوحي والوعي.. وقد ذكر د. «خليل أحمد خليل» هذه الشبهة بمقولاته التالية: «الوحي التوحيدي (القرآني) يخاطب الوحي البشري دون الاعتراف باستقلاله وحريته إلا بقدر مايكون عوناً للوحي المنقول في القرآن... العلم من جهته يؤكد أكثر فأكثر على استقلال العقل ووعي الإنسان، والوحي لا يزال يؤكد على تبعية العقل للغيب»[1]... ولقد أخذ هذا الدكتور من رسالة التوحيد للإمام «محمد عبده» نصوصاً مبتورة مجتزأة من سياقها ليظهر لقرائه خضوع النبوة لحتمياته الجدلية، فقد ذكر في كتابه «جدلية القرآن» قول الإمام: «الرسل من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص... إنهم يرشدون العقل إلى معرفة الله»[2]، محاولاً إرضاء القارىء بأن الرسل إنما أرادوا إقصاء الفعل العقلي، جاعلاً نفسه محامياً عن العقل المغبون بالدين في زعمه.. وتنحصر شبهاته في زعمين كبيرين الزعم بـ: «تناقض الواقع المادي

(1) جدلية القرآن. د. خليل أحمد خليل، دار الطليعة. بيروت، ط 1، سنة 1977. جدل الوحي والوعي، ص: 95 - 100.

(2) المصدر نفسه، ص: 95 - 100.